مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

جوانب من تاريخ التغذية في المغرب
زمن الفتن السياسية والآفات الطبيعية (١٧٢٧ – ١٧٥٧م)
دراسة في الأسباب والمظاهر وأساليب المواجهة

د. عزيز اليحياوي الإدريسي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

يستمد موضوع مقالنا أهميته من راهنيته، بالنظر لما يعيشه العالم حاليًا من تحولات مطردة ومتسارعة، تعزز المخاوف المتعلقة بالأمن الغذائي، نتيجة الأزمات المتلاحقة التي شهدتها وتشهدها الساحة الدولية، إيمانًا منا بالدور الكبير الذي يجب أن يضطلع به المؤرخ من خلال تفاعله الآني مع الأحداث والوقائع. وعلى ضوء ذلك؛ تهدف دراستنا إلى محاولة الكشف عن الارتباط الوثيق بين السلوكات الغذائية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من خلال ما عاشه المجتمع المغربي في فترة تاريخية حساسة، وهي الفترة التي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل، والممتدة من سنة ١٧٢٧م إلى سنة ١٧٥٧م، حيث تكالبت على سكان المغرب أزمات ومحن متعددة المظاهر، فرضت عليهم الجنوح إلى استحداث سلوكيات غذائية تعارضت مع العوائد المألوفة، أملا في الحفاظ على حياتهم. ومن أجل الإحاطة بالموضوع، اعتمدت دراستنا على المنهج الوصفي طبقًا لما أوردته المصادر التاريخية. لأنه سيساعدنا على الكشف عن جوانب من تغذية سكان المغرب إبان الأزمات. فضلاً عن المنهج التاريخي التحليلي، في محاولة تفسير السلوك الغذائي الذي طبع المجتمع المغربي خلال الفترة المدروسة. وعمومًا، حاولت الدراسة من خلال النتائج المتوصل إليها، أن تضعنا أمام حقيقة تاريخية، مفادها أن السلوك الغذائي للمجتمعات له علاقة وثيقة بالظروف الطبيعية والسياسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ مايو ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٨ يونيو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التغذية؛ الفتن السياسية؛ الآفات الطبيعية؛ ندرة المواد الغذائية؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.289516.1132

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عزيز اليحياوي الإدريسي. "جوانب من تاريخ التغذية في المغرب زمن الفتن السياسية والآفات الطبيعية ١٧٢٧ -١٧٥٧م: دراسة في الأسباب والمظاهر وأساليب المواجهة".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد السادس والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٤. ص ١٢٣ – ١٣٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: is.meknes@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

إن الموضوع الذي يرصده مقالنا يدخل في نطاق التاريخ الاجتماعي، وهو من المواضيع المستجدة في الحقل التاريخي أضحت تحظى باهتمام ملحوظ ومتزايد من لدن الباحثين والمختصين في الدراسات التاريخية. ولعل الفضل في ذلك يعود إلى مدرسة الحوليات ANNALES الفرنسية، التي ما فتئت تدعو إلى ضرورة الانتقال من التاريخ الحدثي المرتكز على الأحداث السياسية والعسكرية، إلى التاريخ الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية ومناقشة تفاعلاتها وتداعياتها، وذلك لن يكون ممكنا إلا بانفتاح التاريخ على العلوم الإنسانية الأخرى، خاصة في ظل وجود تقاطعات مع حقول معرفية كثيرة، في مقدمتها علم الأنثروبولوجيا، ساهم في ميلاد ما سمي بالأنتروبولوجيا التاريخية «بوصفها تاريخًا للعادات: عادات فيزيولوجية وحركية وغذائية» (لوغوف، ٢٠٠٧: ٢٤٧). وهو المجال الذي يندرج فيه الموضوع الذي وقع اختيارنا عليه، والمتمثل في موضوع التغذية.

يستمد موضوعنا أهميته من راهنيته، حيث كثر الحديث في الآونة الأخيرة على المخاطر المتعلقة بالأمن الغذائي، في ظل الأزمات المتلاحقة التي حلت بالعالم، والمتمثلة في تداعيات وباء كورونا، والحرب على أوكرانيا، وما رافقهما من ارتفاع مهول في أسعار المواد الأساسية، الأمر الذي انعكس بشكل جلي على الأوضاع الاجتماعية. ولذلك ارتأينا البحث في دهاليز التاريخ، إيمانًا منا بأهمية انخراط الباحثين في التاريخ وتفاعلهم مع الأحداث والأزمات الراهنة.

تهدف دراستنا إلى محاولة الكشف عن الارتباط الوثيق بين السلوكات الغذائية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من خلال ما عاشه المجتمع المغربي في فترة تاريخية حساسة ودقيقة، والمتمثلة فيما اصطلح على تسميتها بـ"أزمة ثلاثين سنة"، التي أعقبت وفاة السلطان المولى إسماعيل سنة ١٧٢٧م إلى سنة ١٧٥٧م، كان من نتائجها المباشرة استحداث المغاربة لسلوكات غذائية خارجة عن العادة والمألوف. ومن هذا المنطلق، فإن الإشكالية المؤطرة لبحثنا تتمثل في رصد المتغيرات التي عرفها المجتمع المغربي بعد وفاة المولى إسماعيل على مستوى المنظومة الغذائية، ومحاولة تفسيرها. ونعتقد أن مقاربة هذه الإشكالية المركزية يمر عبر الإجابة عن التساؤلات التالية: ما هي الأزمات التي عرفها المغرب خلال الفترة الممتدة ما بين سنة ١٧٢٧م إلى سنة ١٧٥٧م؟ وكيف ساهمت في التأثير على طبيعة التغذية لدى المجتمع المغربي؟ وكيف كانت ردود الأفعال تجاهها؟

وفي سياق الإجابة عن إشكالية البحث والتساؤلات المتفرعة عنها، اعتمدت دراستنا على المنهج الوصفي طبقا لما أوردته المصادر التاريخية، لأنه سيساعدنا على الكشف عن جوانب من تغذية المغاربة إبان الأزمات. فضلاً عن المنهج التاريخي التحليلي، من خلال وضع المعلومات الواردة في إطارها التاريخي، ومحاولة تفسير السلوك الغذائي الذي طبع المجتمع المغربي خلال الفترة المدروسة.

أولاً: الأوضاع العامة بالمغرب وتأثيرها على المنظومة الغذائية (١٧٢٧ – ١٧٥٧م)

١/١-الوضعية السياسية

شهد المغرب عقب وفاة مولاي إسماعيل (١١٣٩هـ/١٧٢٧م) سلسلة من الاضطرابات الداخلية والانقسامات السياسية، كان من أبرز معالمها وتجلياتها صراع أبنائه على السلطة. فبعد أن عرفت فترة حكمه استقرارًا سياسيًا وأمنًا اجتماعيًا، حتى بلغ المغرب في عهده "أوج المجد السياسي" (حركات، ٢٠٠٠، ج ٣: ٣٢)، بفضل الإجراءات العملية والتدابير الفعلية التي اتخذها لتوطيد نفوذه ولتصريف شؤون دولته، في مقدمتها تشكيل جيش عبيد البخاري، انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب بعد وفاته، ويرجع السبب الرئيس في هذا التحول إلى ما اصطلح عليه بـ"أزمة ولاية العهد"، ذلك أن شغور منصب الحاكم ساهم بشكل كبير في حدوث اضطرابات سياسية خطيرة، غذاها تدخل أطراف أخرى زادت من تأزيم الأوضاع والمتمثلة في تدخل قواد جيش البخاري.

إن هذا الجيش الذي كان يشكل دعاوالعقد) القادرية أساسية، ساهمت في تعزيز سلطة الدولة المركزية إبان العهد الإسماعيلي، اعتبر في الوقت نفسه، من عوامل

الفوضى التي عمت المغرب خلال الفترة الممتدة ما بين (١١٣٩- ١١٧١هـ/ ١٧٢٧- ١٧٥٧م)، وتكون بذلك قد شغلت مدة ٣٠ سنة، أصبح فيها قواد الجيش يتدخلون في شؤون الدولة، خاصة بعد تأسيسهم لمجلس سموه الديوان، كان بمثابة مجلس الحل والعقد (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٣٥)، وظفوه ممارسة نوع من الوصاية على البلاد (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ١١)، مكنهم من الإمساك بزمام السلطة، وبالتالي التحكم في سير الدولة المركزية، وينهض قرينة على ذلك، تدخلهم في تنصيب وعزل أبناء المولى إسماعيل المتنافسين على الحكم، بما يخدم مصالحهم ويحفظ نفوذهم.

وفي هذا الصدد، تطالعنا المصادر التاريخية بمعلومات وفيرة ودقيقة حول قيام جيش البخاري بتنصيب عدد من الأمراء على العرش والإطاحة بهم، وحتى لا نندرج في سرد ممل، فضلنا توضيحها من خلال الجدول التالي[1]:

السلطان	عدد مرات التنصيب
المولى أحمد الذهبي	مرتان
عبد الملك	مرة واحدة
المولى عبد الله	٧ مرات
علي الأعرج	مرة واحدة
المولى محمد بن عربية	مرة واحدة
المولى المستضيء بنور الله	ثلاث مرات
المولى زين العابدين	مرة واحدة

وارتباطًا بالتدخل الكبير للجيش في الشؤون السياسية، والذي خلق أزمة سماها أحد الباحثين بـ "أزمة عبيد البخاري" (العمراني، ٢٠١٣: ٦١)، اندلعت حروب كثيرة بين الأمراء المتصارعين على الحكم، وما رافقها من محاولات بعض الباشوات والقواد مد نفوذهم وتقوية سلطتهم، مستغلين حالة الفوضى والاضطراب، من أبرزهم الباشا أحمد بن علي الريفي الذي سيطر على الفحص، ومنطقة غمارة، وطنجة، والقصر، ومنطقة الريف وجبالها وقلاعها (ابن زيدان، إتحاف، ٢٠٠٨، ج ٤: ٤٧٦). فضيق على سكانها، ووصل طغيانه وتجبره لدرجة أنه كان يفرض على ضعفائهم الإتاوة، ويضيق عليهم في أرزاقهم، فلم يجدوا ما يقتاتون عليه (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤٣). فضلاً عن رفع عدد من القبائل راية العصيان والتمرد، ترتب عنها مجموعة من الفتن والمحن حلت بحواضر المغرب وبواديه، ومن الشواهد الدالة عليها الهجمات التي شنتها قبائل الأطلس المتوسط على مدينة مكناس، ففي ظرف سنة واحدة، (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م)، تعرضت المدينة لغارتين، نتج عنهما ضرر وضيق عظيم، وحل الخراب بالمدينة، وفي السنة الموالية ضيقوا على أهل المدينة في أرزاقهم وأقواتهم (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٢٤- ١٢٥).

إن أبرز شخصية أميرية ظهرت في خضم هذه الأحداث هو المولى عبد الله بن السلطان إسماعيل، وقد يطول بنا المقام لو استرسلنا في استقصاء تفاصيل أدواره –وليس هذا غرضنا الأساسي من هذا المقال-. وباختصار كبير، فقد فتح جبهات كثيرة في محاولة لتكريس سلطته، استهلها بمحاصرة مدينة فاس، بعد امتناع أهلها عن مبايعته سنة (١١٤١هـ/ ١٧٢٩م)، أفضى هذا الحصار إلى ارتفاع أسعار الأطعمة بشكل كبير فاق قدرة الناس (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٥٢). تلاها هجومه على بني حسن والشاوية بدعم من عبيد البخاري، أسفر عن مقتل عدد لا يحصى من السكان (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١١٢). ثم نهض بقواته لمنطقة تادلة، والريف، وجبالة، ووجدة، وسوس (الضعيف، تاريخ، ١٩٨٦: ١١٢- ١١٣)، لكنه سرعان ما دخل في صراع مرير مع فرقة من جيش عبيد البخاري، بعد اكتشافه خطة دبرها الباشا سالم الدكالي للإطاحة به، وجراء ما فعله في حق والدته السيدة خناتة بنت بكار زوجة المولى إسماعيل، حيث نكل بها ونهب أموالها، فبعث السلطان قواته لاعتقاله، وبعد كر وفر ألقي القبض عليه بصحبة أعوانه فسجنهم، ثم أمر

(١) هذا الجدول تم وضعه من خلال استقرائنا للمصادر التالية:
- القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٣٤- ٣٣٥- ٣٦٣- ٣٦٤- ٣٧٣- ٣٧٤- ٣٨٢- ٣٩٧.
- الريفي، زهر الأكم، ١٩٩٢: ٢٢٢- ٢٢٧- ٢٣٩- ٢٥٥- ٢٦٢.
- الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٠٨- ١٢٠- ١٢٤- ١٢٩- ١٣١- ١٣٦- ١٣٧- ١٣٨- ١٣٩- ١٤١- ١٤٢- ١٦٢.

بتصفيتهم بعد استصداره فتوى من قاضي مكناس البوعناني (الكنسوسي، الجيش العرمرم، د.ت، ج ١: ١٧٥). ليوجه بوصلته صوب المنطقة الشمالية، فدخل في مواجهة مباشرة مع الباشا أحمد بن علي الريفي، وبعد معركة فاصلة انتهت بانتصار السلطان في منطقة دار العباس قرب وزان في ١٤ جمادى الثاني ١١٥٦هـ/ ٥ غشت ١٧٤٣م (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٩٦).

وبناءً على ما تقدم؛ نستخلص أن الوضع السياسي بالمغرب خلال الفترة الممتدة بين ١٧٢٧م و١٧٥٧م، بلغ حالة من التردي والفوضى، انعكس على المجالين الاقتصادي والاجتماعي، خاصةً فيما يتعلق بالسلوك الغذائي للمغاربة، والذي عرف تبدلات وتغيرات واضحة -كما سنبين لاحقًا-.

٢/١-الآفات الطبيعية

بموازاة مع الاضطرابات السياسية والتطاحنات العسكرية -السابقة الذكر-عرف المغرب تعاقب فترات من الكوارث الطبيعية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

التاريخ	نوع الكارثة الطبيعية	بعض نتائجها
١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م	مجاعة-جفاف	«اختل النظام وشاع الفساد وحصلت المجاعة العظيمة، ومات بالجوع من لا يحصى، وقل الإدام وانقطع اللحم». (ابن زيدان، إتحاف، ٢٠٠٨، ج ٤: ٤٧٦).
١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م	مجاعة	«في هذه الفترة الحزينة من الغلاء والمجاعة، في المزارع والحقول والجبال نجد الناس موتى من الجوع» (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٢).
١١٥١هـ/ ١٧٣٨م	طاعون	«البلاد كلها في درجة قصوى من البؤس، يأكلون كل شيء يمكنه أن يمد الحياة» (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٨٤).
١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م	فيضانات	«في هذه السنة كان السيل العظيم نحو من خمسة أشهر، والأمطار متصلة من الصيف». (الريفي، زهر الأكم، ١٩٩٢: ٢٦٢).
١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م	نقمة الفئران	«ظهرت نقمة الفار، سلطه الله على الزرع والبحائر والذرة والرمان، وكثرت إيذايته حتى أعيا الناس بكل حيلة». (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٢٥-٢٦).
١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م	طاعون	«فشى الطاعون -والعياذ بالله- بفاس ومكناسة الزيتون وفي مشرع الرملة وزرهون وغيرها».(الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤٠).
١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م	فيضانات	«انهالت السماء بالأمطار، فحملت الأودية... وذهب السيل... بكثير من أنعام بني مالك بالغرب». (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤١).
١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م	طاعون	«هو عام اليبسة وظهر فيه الطاعون وفشى في المغرب... وفنى به خلائق عديدة لا تحصى». (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٥٥).
١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م	مجاعة	«وهو عام اللوبية... جاءت في زمن الشدة». (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٥٥).

التاريخ	نوع الكارثة الطبيعية	بعض نتائجها
١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م	جراد	«وفي أوائل رمضان جاء جراد كثير... فظهر منه ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وأتى على النبات الأخضر كالذرة وأوراق الأشجار وقشرها». (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٩٩).
١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م	زلزال	«وقعت زلزلة ارتجت الأرض لها ارتجاجًا... اضطرب الماء في الصهاريج حتى فاض على البيوت، وتغيرت العيون، ووقف الماء في الأودية عن الجري». (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ١١٣).

نستشف من الجدول أعلاه، أن المغاربة توالت عليهم سنوات قاسية وحالكة خلال الفترة الممتدة ما بين (١٧٢٧-١٧٥٧م)، كان لها تداعيات كبيرة وآثار وخيمة على الاقتصاد والمجتمع المغربيين، أرخت بظلالها على العادات الغذائية للمغاربة.

٣/١-نذرة الموارد الغذائية

شهدت أسعار المواد الغذائية ارتفاعًا مهولاً في أغلب فترات الحقبة الممتدة ما بين ١٧٥٧-١٧٢٧م، والمرتبطة بقلة العرض وتزايد للطلب، الأمر الذي هدد الناس في أقواتهم، وخصوصًا الفئات الفقيرة. ولا يخامرنا شك أنها نتيجة حتمية للأزمات السياسية والآفات الطبيعية التي أصابت المغرب. ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن أزمة الأسعار التي اجتاحت المجتمع المغربي، زادت من تكريس أوضاعه المتأزمة وأحواله المتدنية، استقيناها من المصادر التاريخية، حيث ترد فيها عبارات تفيد نفس المعنى، تحمل أوصافًا تعبر عن انفعالات لها دلالتها العميقة، ولأهمية تلك العبارات نوردها بنصها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- في سنة (١١٤١هـ/ ١٧٢٩م): «وارتفع سوم الطعام بفاس فبلغ القمح عشر موزونات للصاع، ولم يوجد إلا في بعض الأوقات» (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٥٢).
- في سنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م: «غلت الأسعار... فبلغ سوم القمح في شهر ذي الحجة منها ستة أواقي للمد، وسوم الشعير إلى أربع أواقي للمد. ولم يجد أحد بما يشتريه من غلبة الفساد وكثرة الكساد في السلع» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٣: ٤٠٠).
- في سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م: «وصل وسق القمح ثمانين مثقالا، والشعير ما يقرب من ذلك، والذرة كذلك، والزيت بخمسة وعشرين مثقالا للقنطار. وما زال الزرع في الزيادة إلى أن بلغ مائة مثقال للوسق، يعني وسق القمح، وبيعت الدار الجيدة في تلك الوقت بستين مثقالا إلى «ستة وثمانين مثقالا» (الريفي، زهر الأكم، ١٩٩٢: ٢٤٩).
- في سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٨م: «وبلغ القمح بفاس أزيد من خمس أواق قديمة للصاع النبوي... نسأل الله السلامة والعافية» (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٢٦).
- في سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م: «وبلغ سوم الزرع في هذا العام خمس موزونات للصاع النبوي» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٨٣).
- في سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٢م: «غلت الأسعار وشاهت الوجوه وتغيرت الخواطر وفسدت القلوب، وبيع القمح بتسعة مثاقيل للوسق، وبالغد بعشرة مثاقيل، وبعد غد بأحد عشر مثقالا للوسق وهكذا» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٩٧).

وعليه، يمكن الإقرار بأن الأزمات التي تكالبت على المغاربة في الفترة الممتدة ما بين ١٧٢٧م و١٧٥٧م، كان لها انعكاسات سلبية على الاقتصاد والمجتمع المغربيين، فعلى المستوى الاقتصادي شهد الإنتاج الفلاحي تراجعًا مهولاً بعد تقلص مساحة الأراضي المنزرعة، وضياع المحاصيل الزراعية وتوقف عمليات الحراثة وقلة البذور، إضافة إلى نفوق قطعان الماشية وهلاك الدواب، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، فهذا القادري

يخبرنا أنه في سنة (١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م) هم الفلاحون بـ «الحرث على ضعفهم، ولعجزهم عنها بالدواب حرثوا بالفؤوس. وغاية ما بلغ من له القدره أن حرث على الحمير. وقليل منهم حرثوا بالدواب الكبار. وقد علمت أن سبعة رجال اشتركوا في حرث زوج من الحمير وحملوا عليها واحدًا وعشرين وسقا من القمح» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ١٨).

وتبعًا لذلك، عرف النشاط التجاري ركودا ملحوظا، فنتيجة لانعدام الأمن واختلال النظام، انتشرت ظاهرة اللصوصية، حيث «انقطعت الطرق بالكلية... وجعل اللصوص يهجمون على الناس في ديارهم ليلا ويقتلونهم» (القادري، نشر المثاني ،١٩٨٦، ج ٣: ٤٠٤). ناهيك عن انتشار ممارسات احتكارية للسلع الاستهلاكية في مقدمتها القمح، فقد ذكرت الأسيرة الهولندية ماريا تيرمتلن أن رؤساء جيش عبيد البخاري نشروا «إعلانًا يقول إن مَنْ يريد شراء القمح عليه أن يتوجه إلى الجيش لشرائه أو حمله، فارتفع بذلك الثمن من ٢ إلى ٦٠ دبلتج» (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٤).

أما على المستوى الاجتماعي فقد حدث نزيف ديموغرافي بسبب كثرة «القتل وسفك الدماء، فماتت خلائق لا يحصون، وكاد أن يهلك جميع من في المغرب من خاص وعام» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٣: ٣٢١). كما تفاقمت ظاهرة الهجرة السكانية، فمثلاً لما فشا الطاعون سنة (١١٥٥هـ/١٧٤٢م)، اضطر سكان مدينة فاس تحت وخز الجوع لبيع منازلهم والفرار بذويهم صوب مدن الشمال المغربي مثل القصر ووزان والعرائش وتطاون وطنجة بعيالهم (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤١). فضلاً عن حدوث تغيرات عميقة وتقلبات كبيرة في أحوال الناس وعوائدهم، خاصةً فيما يتعلق بالتغذية موضوع مقالنا.

ثانيًا: مظاهر التغذية بالمغرب زمن الأزمات

للإنسان غرائز وحاجات بيولوجية كثيرة جبل عليها، منها غريزة البقاء وحب الحياة، لذلك يسعى بشتى الوسائل حمايتها ومواجهة كل الأخطار المهددة لها، في مقدمتها الجوع، عبر اتباع سلوكات تكون في بعض الأحيان غير مألوفة لديه عند الظروف الاستثنائية، تضمن له حفظ نفسه من الهلاك، باعتبار «الجوع قوة اجتماعية بوسعها أن تسلك بالجماعات البشرية مسالك غريبة» (دي كاسترو، د.ت: ١٥٨). وهذا ينسحب على المجتمع المغربي، إذ لا شك أن الأزمات والمحن التي تكالبت على المغاربة في الفترة ما بين سنة ١٧٢٧م وسنة ١٧٥٧م، والتي تعددت مظاهرها ما بين الاضطرابات السياسية والنزاعات العسكرية والآفات الطبيعية، كانت شديدة الضغط وثقيلة الوطء، فرضت عليهم الجنوح إلى سلوكيات وممارسات غذائية تعارضت مع العوائد المألوفة، استدعتها غريزتهم الفطرية، ففقدان المواد الغذائية ونذرتها شكل تهديدًا حقيقيًا لوجودهم، لذلك سعوا جاهدين إلى استحداث أنماط غذائية غير معهودة. وقد حفظت لنا المصادر التاريخية بعضًا من هذه الأنماط، نذكر منها:

١/٢-النباتات البرية

لمواجهة النقص الحاد في الطعام ومحاربة الجوع، أقبل المغاربة على أكل نخالة الشعير، وقشور الفول، وعجم (نوى) النبق، وعجم التمر، وعجم تاسلغوا (الخروب)، والفيتور(مخلفات الزيتون بعد عصره)، حسب ما ذكره القادري (القادري، ١٩٧٨، ص ٥٢). فضلاً عن النباتات العلفية المجففة الخاصة بالحيوانات كالتبن (تيرمتلن، قصة المثاني، ١٩٩٦: ٦٠) وهو عصف الزرع من قمح أو شعير أو نحوه.

كما اضطر المغاربة إلى تناول النباتات والأعشاب والحشائش البرية السامة منها والنافعة، وحتى التي لم تنبت نتيجة عملية الزراعة، والمنتشرة في السهول وعلى ضفاف الأنهار وسفوح الجبال، من أشهرها نبات إيرني (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٥٥)، وكانت طريقة تطويعه ليصبح قابلا للأكل تتم عبر سلق عروقه «بالماء مرارا لإزالة مادته السامة، ثم تجفف بأشعة الشمس، وتطحن فتعطي دقيقا يصنع منه خبز شديد البياض، لكنه عسير الهضم» (البزاز، ١٩٩٢: ٣٥٧).

٢/٢-لحوم الآدمي والحيوان

انتشرت هذه الظاهرة على الخصوص خلال فترة حكم المولى محمد ابن عربية (١٩٤٩- ١١٥١هـ/ ١٧٣٧-

١٧٣٨م)، حيث بلغت أوضاع المغرب من السوء لدرجة أنه كان «لا يأمن أحد على نفسه، ولا على فلسه، من كثرة الجور والظلم» (الريفي، زهر الأكم، ١٩٩٢: ٢٥٣)، لاعتماده على عناصر فاسدة مارست شتى أنواع الطغيان والبغي والظلم، مستغلين نفوذهم وسلطتهم بشكل بشع، تزامن كل هذا مع انتشار الجوائح والأوبئة، فكانت أيامه ثقيلة الوطء على الناس، حتى أطلقوا عليه اسم "الكايلة" (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٢٦)، أو القايلة نسبة إلى وهي وقت الظهيرة حيث الحرارة شديدة، فلقب بذلك لسيادة الجفاف والقحط والمجاعة، وسيادة الفتن في عهده (العمراني، ٢٠١٣: ٦٥)، أجبرتهم على اتباع سلوكات مستهجنة ومثيرة للاشمئزاز لمخالفتها الفطرة السوية، والمتمثلة في أكل لحوم الآدمي، ولدينا عدد من الإشارات التي تدل على جنوح المغاربة نحو هذا النوع من التغذية، التقطناها من الهولندية ماريا تيرمتلن الأسيرة التي عاشت بمدينة مكناس من سنة ١٧٣١م إلى سنة ١٧٤٣م، فنقلت أن الناس أكلوا لحوم الأموات، كما تغذت النساء على أجساد أبنائهن، وتضيف أن حتى الحيوانات أكلت سواء كانت حية، حتى «لم يبق كلب ولا قط الكل أكل»، أو ميتة إذ كانوا يستخرجون «عظام الحيوانات من الأرض، وتدق بالحجر وتؤكل مع جرعة الماء» (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٠).

والجدير بالذكر أن المغاربة ولمحاربة الجوع، حاولوا استثمار بعض الآفات الطبيعية وإدراجها في منظومتهم الغذائية الاستثنائية، في مقدمتها الجراد، فعلى الرغم من آثاره السلبية وأضراره الخطيرة على المحاصيل الزراعية، تمت الاستفادة منه في التغذية، وحسبنا دليلاً ما أشار إليه طوماس بيلو Thomas Pellow أن المغاربة كانوا يستهلكون الجراد، وذكر طريقة تحضيره حيث يغمسونه في محلول ملحي، وبعد طهيها، يضعونها في الملح للحفاظ عليها، فتصبح لذيذة يشبه مذاقها مذاق الجمبري (MORSY, La relation de Thomas , 1983: 217).

٣/٢-مواد غير غذائية

في خضم محاربة الجوع والكفاح من أجل البقاء على قيد الحياة، اضطر المغاربة إلى استهلاك بعض المواد غير الغذائية والتي تخالف الفطرة البشرية، فهذه الأسيرة الهولندية تخبرنا بأن بعض المغاربة تناولوا جير الجدران (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٠). ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى أنه وفي ظل الأزمات التي عرفها المغرب خلال الفترة المدروسة، انتشرت ظاهرة معاقرة بعض المغاربة للخمور، وهي ظاهرة كانت متفشية بالمغرب منذ القديم. وتتوفر لدينا إشارات لا يستهان بها استقيناها من المصادر الأجنبية، والتي تكاد تغيب في المصادر الغربية، فقد ذكرت الأسيرة الهولندية ماريا أن أحد الباشوات بمدينة مكناس فتح بجوار منزله حانة يستغلها المسيحيون (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٥١).

كما تحدثت عن اشتغالها بنفسها في صناعة الخمور، حيث كانت تملك حانة تشغل فيها خادمين وخادمة بأجر مقبول، مكنتها من مراكمة أرباح مهمة، لكن وبسبب صراع السلطان المولى عبد الله مع فرقة جيش عبيد البخاري بقيادة الباشا الدكالي، لحقت بها خسائر فادحة (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٥٩)، فاضطرت إلى إغلاقها لفترة مؤقتة، ثم عادت لفتحها بمعية زوجها خلال فترة حكم المولى المستضيئ (١١٥١-١١٥٢هـ/ ١٧٣٨- ١٧٤٠م)، بعد أن نجحت في الحصول على قرض من بعض تجار سلا لما قدموا إلى مدينة مكناس لتهنئة السلطان الجديد (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٦).

وقد وصفت ماريا طريقة تصنيعها للخمور بالاعتماد على العنب، حيث تقول: «كنت أقوم فيها بتصفية الخمر الفوارة Vin Mousseux، وماء الحياة Eau de Vie» (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٦)، فحققت أرباحًا مهمة بفضل عملها الدؤوب، منوهة إلى أن عملية بيع الخمور كانت تتوقف خلال شهر رمضان (تيرمتلن، قصةن الهولندية، ١٩٩٦: ٦٧). وهي نفس الملاحظة التي سجلها طوماس بيلوThomas Pellow، حيث ذكر أن المغاربة المعتادون على شرب الخمر كانوا يمتنعون عنه

خلال شهر رمضان (MORSY, La relation de Thomas, 1983: 110).

ثالثًا: بعض وسائل التدخل لحل الأزمة الغذائية

في إطار مواجهة تداعيات الفتن السياسية والآفات الطبيعة وغلاء الأسعار على المنظومة الغذائية، اضطر المغاربة إلى البحث عن حلول وبدائل لمواجهة قلة الأقوات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١/٣-استيراد الحبوب من الخارج

شكلت التجارة الخارجية إحدى الآليات التي اعتمدها المغاربة لحل أزمة ندرة المواد الأساسية، خاصة الحبوب التي كانت المصدر الرئيس لعيش معظمهم، لذلك بذلت جهود حثيثة لتوفير هذه المادة الحيوية في الأسواق، ويمكن استنادا إلى المادة المصدرية تصنيف تلك الجهود إلى نوعين: رسمية وشعبية. فعلى المستوى الرسمي؛ نسجل المحاولة التي قام بها قائد جيش عبيد البخاري الحوات، الذي طلب من التجار الأجانب جلب كميات كبيرة من الحبوب إلى المغرب، وقد دعم السلطان وقتئذ محمد بن عربية خطوة هذا القائد، حيث بعث رسالة إلى أولئك التجار بتاريخ ١٢ شتنبر ١٧٣٧م، الشاهد فيها: «أناشدكم بأن تكدسوا الأقوات بمحلاتكم، وأن تبيعوا وتشتروا على عادتكم، فسيعود عليكم ذلك بالربح وعلى مملكتي بالرخاء» (البزاز، ١٩٩٢: ٥١).

أما على المستوى الشعبي؛ فيمكن الحديث عن مبادرتين: الأولى متمثلة في قيام تجار مدينة فاس بشد رحالهم صوب تطوان قصد جلب المواد الزراعية، حيث شكل ميناؤها بوابة المغرب في التجارة الخارجية مع أوربا، مستفيدة من ظروف جيو- سياسية (السعود، ٢٠٠٧: ١٩٥). فخلال سنة (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) نجح أولئك التجار في شرائهم كميات مهمة من الزرع، وانتظروا مدة ستة أشهر لنقله إلى فاس، بسبب العراقيل التي وضعها أمامهم الباشا أحمد بن علي الريفي، الذي سعى إلى استغلال الحدث لإجبار أهل فاس على الخضوع لنفوذه وسلطته. وهكذا، أمر بعض القبائل العربية المكلفة بنقل المواد من ميناء تطوان إلى المدن الداخلية بتأخير عملية الشحن (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٨٠). والمبادرة الثانية تطوعية، نهض بها ركب الحج المغربي الذي قدم من الشرق مرفوقا بـ «إبله موسوقة بالقمح من طرابلس» (القادري، التقاط الدرر، ١٩٨٣: ٣٨١). وعمومًا ساهمت المبادرتين في انخفاض ثمن القمح بشكل ملحوظ، وبالتالي تخفيف معاناة السكان ولو نسبيًا.

وتجدر الإشارة إلى أن عملية تسويق الحبوب لم يكن بالأمر الهين، إذ كانت خاضعة للمضاربة والمنافسة الشرسة بين التجار الكبار، وما ينجم عن ذلك من صراع غذى محن العامة، ومن الشواهد الدالة ما حدث زمن مجاعة (١١٥٠هـ/ ١٧٣٨م) بين رجل يدعى العماري ورجل آخر من الشرفاء هو علي بن محمود بوطالب، حيث اشترى العماري القمح من إحدى القوافل بعد دفعه لمبلغ لم يستطيع أحد دفعه، وعندما كرر فعلته، قام الشريف علي بإعطاء مبلغ أكبر منه، فاندلع خلاف بينهما، انتهى بقتل العماري للشريف، ليقوم أنصار هذا الأخير بقتل العماري وعدد من أنصاره (ابن زيدان، إتحاف، ٢٠٠٨، ج ٤: ٤٨١).

٢/٣-التخفيض من الضرائب

يعتبر هذا الإجراء من التدابير المهمة بالنظر إلى أثره في مواجهة الظرفية الاستثنائية المتأزمة، والمطبوعة بانتشار الجوع على أوسع نطاق. وفي هذا السياق، أعلن المولى محمد بن عربية خلال فترة حكمه القصيرة سنة (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) عن تخفيض الضرائب، مستهدفا تخفيف حالة البؤس والضيق والشدة، وامتصاص حالة الاحتقان في صفوف القبائل الناقمة، وفي الوقت نفسه استمالتهم وكسر شوكتهم (تيرمتلن، قصة الهولندية، ١٩٩٦: ٦٣).

٣/٣-بيع الممتلكات

اضطر المغاربة تحت شدة الفاقة والعوز، على اختلاف مراتبهم لبيع ما يمتلكونه، فخلال سنة ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م باع أهل فاس «الديار والرباع والأصول والحلي وأكلوا ذلك ولم ينفعهم» (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤١)، بل ووصل الأمر بالبعض لبيع كتبهم، فهذا الوجيه الشيخ الجليل المعطي بن صالح

الشرقي المتوفى سنة (١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م) كان يمتلك «خزائن من الكتب لكونه مليا من متاع الدنيا، وتكرر موجب الحاجة على أهلها باحتياجهم لأجل مسغبة عام خمسين ومائة وألف» (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ١٧٤). ومما يؤكد على انتشار ظاهرة بيع الكتب زمن المجاعة ما قام به القاضي محمد البكري الدلائي، ففي مسغبة (١١٦٤هـ/ ١٧٥٠-١٧٥١م) اشترى كتبًا كثيرة بثمن بخس جدًا، لأن الناس كانوا في شدة ومحنة (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٩٠).

وارتباطًا بظاهرة البيع، برزت قضية ملفتة للانتباه متمثلة في انتشار بيع وشراء الأملاك الحبسية، وهو الأمر الذي أثار نقاشا كبيرا وجدالا واسعا بين الفقهاء؛ بين مؤيد لها تحت مبرر الظروف الاستثنائية، ومعارض بشكل صارم. وهكذا، برزت مجموعة من الفتاوى التي تجيز بيع وشراء الحبس زمن الشدة والمحن، من أبرزهم الفقيه النوازلي والقاضي المفتي العلامة محمد البكري الدلائي -المذكور آنفا-، الذي ألف كتابا وسمه بـ القول المنثور ببيع الحبس في المسغبة ليس بمشهور (القادري، نشر المثاني، ١٩٨٦، ج ٤: ٩٠).

٤/٣-صلاة الاستسقاء

شكل انحباس المطر مصدر الجفاف والقحط الذي أصاب المغرب، مما كان يهدد الموسم الزراعي، الأمر الذي أثر على المنظومة الغذائية للسكان، وبحكم طابع التدين لجأ المغاربة إلى إقامة صلوات الاستسقاء والدعاء بطلب الغيث من الله تعالى، مستعينين بصلحائهم وأوليائهم المشهود لهم بالفضل والاستقامة والصلاح. وفي هذا الصدد، أقيمت صلاة الاستسقاء عدة مرات متتالية بلغت ٧ مرات ما بين ٢٨ ذي القعدة و٥ ذي الحجة سنة (١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م) ولم ينزل المطر (ابن زيدان، إتحاف، ٢٠٠٨، ج ٤: ٤٧٥- ٤٧٦).

٥/٣-التسول

لجأت بعض فئات المجتمع إلى طلب واستجداء الميسورين للمن عليهم بما جادت به نفوسهم، مستخدمين أشكالا وصورا كثيرة لاستمالة قلوبهم، منها استخدام الأطفال كوسيلة استعطاف، فقد ساق الضعيف حادثة وقعت إبان الولاية الثانية للسلطان المولى المستضيئ بنور الله، فقد عانى الناس من ضيق وشدة، فكان «دراري أهل فاس يسعون في القصر ويطلبون بين الديار، حتى كانت صبية صغيرة تقول: متاع الله، لله، على ربي، ياللي اعطني قدر ما يعطي للقطيطة، أي اعطيني قدر ما تعطي للهرة وهي القطة» (الضعيف، تاريخ الضعيف، ١٩٨٦: ١٤١).

٦/٣-حفظ الطعام لأطول مدة ممكنة

مع تعاقب فترات الأزمات أبدع المغاربة في طرق حفظ بعض المواد الغذائية وإبطاء فسادها من أجل استغلالها زمن المحن والشدائد الطارئة، فقد روى طوماس بيلو واقعة حدثت معه، حيث قام الجيش بإرسال ضعف ما نحتاجه من الطعام كل يوم، وحتى نتمكن من تخزين اللحوم، قمنا بتقطيعها إلى شرائح طويلة وضيقة بعرض أصبعين تقريبا، ثم تعليقها بعد التمليح على سروج الخيل، ذلك أن الرياح والشمس ستجففها، مما يسمح بالحفاظ عليها لمدة سنة كاملة» (MORSY, La relation de Thomas, 1983: 108-109).

خَاتِمَةٌ

صفوة القول، فقد خلصت الدراسة إلى أن السلوك الغذائي للمغاربة تأثر بالأزمات التي عصفت بالبلاد (١٧٢٧هـ/ ١٧٥٧م)، حيث عرفت الوضعية السياسية اضطرابا خطيرا، تزامن مع تعاقب فترات المجاعات والأوبئة والجفاف، رافق كل ذلك ارتفاع كبير في الأسعار، أدى إلى تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، كان من تجلياته قلة الأقوات، ونقص حاد في المواد الغذائية، فاضطر المغاربة إلى الجنوح نحو سلوكات غذائية بديلة اتسمت بالغرابة والخروج عن المألوف، في محاولة لتخفيف معاناتهم وتسكين أوجاعهم، والكفاح من أجل البقاء على قيد الحياة، مخالفين بذلك طبيعتهم البشرية وعوائدهم السائدة وقيمهم المتداولة، واقترن ذلك بانتشار ممارسات فوضوية وأعمال. ورغم هذه الأوضاع المزرية بذل المغاربة في الوقت نفسه مجهودات حثيثة ومبادرات بغية تخفيف الشدة والمحنة، معتمدين على وسائل متنوعة، مكنتهم بشكل أو بآخر تدبير الأزمة الغذائية ولو بشكل نسبي.

البيبليوغرافيا:

١- باللغة العربية:

أ- المصادر:

- ابن زيدان عبد الرحمان. (٢٠٠٨): **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- تيرمتلن ماريا. (١٩٩٦): **قصة الهولندية ماريا تيرمتلن: الأسيرة التي عاشت بمكناس العاصمة في النصف الأول من القرن ١٨**، ترجمة ودراسة وتحقيق ادريس أبو ادريس، المحمدية، مطبعة فضالة.
- الريفي عبد الكريم بن موسى. (١٩٩٢): **زهر الأكم: مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.
- الضعيف محمد الرباطي. (١٩٨٦): **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، الرباط، دار المأثورات للنشر.
- القادري محمد بن الطيب. (١٩٨٣): **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة.
- القادري محمد بن الطيب. (١٩٨٦): **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب.
- الكنسوسي محمد بن أحمد. (د.ت): **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية.

ب- المراجع:

- البزاز محمد الأمين. (١٩٩٢): **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- حركات إبراهيم. (٢٠٠٠): **المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة.
- السعود عبد العزيز. (٢٠٠٧): **تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة-المجتمع- الدين**، تطوان، منشورات جمعية تطاون أسمير.
- العمراني محمد. (٢٠١٣): **المغرب زمن العلويين الأوائل**، الرباط، مطابع الرباط نت.
- كاسترو جوزويه دي. (د.ت): **جغرافية الجوع**، ترجمة زكي الرشيدي، القاهرة، دار الهلال.
- لوغوف جاك. (٢٠٠٧): **التاريخ الجديد**، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

٢- باللغة الأجنبية:

- MORSY Magali. (1983) : **La relation de Thomas Pellow, Une lecture du Maroc au XVIIIe siècle**, Paris, Éd. Recherche sur les civilisations.